بوتين وكارزمة الإنجاز

(**مجلة الديمقراطية**، الأهرام، العدد ٧٠، أبريل ٢٠١٨)

د. نورهان الشيخ[١]

لعلها ليست مبالغة القول بأن الرئيس فلاديمير بوتين يعد قيادة استثنائية فى التاريخ الروسى، وربما لا ينافسه فى ذلك سوى بطرس الأكبر الذى حكم روسيا على مدى أربعة عقود غير فيها وجه روسيا، وبنى نهضتها وإمبراطوريتها الممتدة. ويمثل الرئيس بوتين نموذجاً أخر للقيادة الكارزمية، التى تتمتع بعظمة القياصرة ودهاء الساسة وشجاعة القادة، وتعكس نظراته الثاقبة بصيرة التحليل وعمق الشعور بضخامة التحديات، ووضوح الرؤية نحو المستقبل، والأهم إن لديه قدرة على الإنجاز وترجمة الأهداف إلى سياسات ونجاحات على الأرض، ويعى جيداً كيف يقتنص الفرص، ويحول التحدى إلى نصر، وأين تطئ قدميه ولماذا.

وقد تضافرت مجموعة من العوامل التى عضدت من شعبية الرئيس بوتين وجعلت منه الرئيس والقائد "النموذج" ليس فقط بين غالبية مواطنيه من الروس ولكن فى دول ومجتمعات عدة، وحتى بين منافسيه فى الداخل والخارج الذين لا يستطيعون إنكار الإعجاب بشخصيته وأداءه وإن اختلفوا مع سياساته لتأثيرها على مصالحهم، ومنهم الرئيس الأمريكى دونالد ترامب الذى عبر عن إعجابه ببوتين، ووصفه بأنه "القائد القوى" الذى يجب "التفاهم" معه.

ولعل أولى هذه العوامل هى تلك المتعلقة بشخصية بوتين ومستوى تأهيله وتعليمة وخبرته، فقد جمع بوتين فى دراسته بين القانون حيث تخرج من كلية الحقوق جامعة لينينجراد (سان بطرسبرج حالياً)، والاقتصاد حيث حصل على درجة الدكتوراة فى الاقتصاد، وكلاهما دعامتين للتفكير المنطقى المنضبط السليم. وعلى صعيد الخبرة العملية، عمل بوتين على مدى ما يزيد عن خمسة عشر عاماً منذ تخرجه عام ١٩٧٥ فى ظل الاتحاد السوفيتى وعايش عن قرب أزماته التى انتهت بتفككه وما تبع ذلك من تدهور شامل للدولة الروسية، وكان على وعى بمواطن الداء، ومن ثم مفاتيح النهوض وإعادة البناء. وجمع فى خبرته العملية بين العمل الأمنى والسياسى، وعرف الخط الأحمر بين المعلن والمخفى فى السياستين الداخلية والخارجية ليصبح سياسى محنك وداهية. فقد عمل فى المخابرات السوفيتية (KGB) على مدى عقد ونصف،

---

[١] أستاذ العلاقات الدولية، جامعة القاهرة.

وحتى عام ١٩٩٠ حين انتقل للعمل السياسى والعمل العام فى مدينة لينينجراد. وفى مارس ١٩٩٧، تم تعيينه رئيسا لإدارة الرقابة بالكرملين، وهى الإدارة التى تشرف على تنفيذ القرارات الرئاسية، ثم نائبا أول لمدير ديوان الرئيس الروسي في مايو من العام التالى، لينتقل إلى مستوى نوعى أخر من الخبرة والعمل السياسى، والصعود السريع لقمة السلطة. ففى يوليو من نفس العام، أصبح بوتين مديرا لجهاز المخابرات الروسية (الامن الفيدرالى الذى خلف جهاز KGB السابق)، وجمع بين رئاسته لجهاز الأمن الفيدرالى، والعمل سكرتيرا لمجلس الأمن القومى فى مارس ١٩٩٩، وفى أغسطس من نفس العام تم تعيينه رئيساً للوزراء. ولاشك أن هذه الخبرة الطويلة والمتنوعة أكسبته عمقاً فى الرؤية ودراية واسعة بكواليس العمل السياسى من ناحية، وبالبيروقراطية الروسية وبعمل الجهاز الحكومى من ناحية أخرى، الأمر الذى أكسبة القدرة والمهارة العالية فى التعامل الفعال مع الجهات التنفيذية المسئولة عن إدخال رؤيته حيز التنفيذ.

ثانيها، الاطار الدستورى الذى يمنح الرئيس الروسى حرية حركة وسلطات واسعة النطاق. فقد جاء الدستور الروسى الحالى (دستور عام ١٩٩٣) فى إطار مواجهة سياسية عنيفة بين الرئيس الروسى آنذاك بوريس يلتسين والبرلمان، وصلت حد قصف يلتسين للبرلمان بالمدافع وإلقاء القبض على نائب الرئيس المنتخب ورئيس البرلمان وعدد من أعضاءه. وقد عمد يلتسين عند صياغة الدستور لطرحه على الاستفتاء العام إلى الحد من سلطات البرلمان وصياغة دستور يغير من طبيعة النظام السياسى باتجاه نظام رئاسى قوى يلعب فيه رئيس الجمهورية الدور المحورى والأساسى فى صنع السياستين الداخلية والخارجية، ويجعل منه الشخصية الأهم فى الدولة الروسية. وعندما وصل الرئيس بوتين للسلطة كان الاطار الدستورى والقانونى يسمح له بممارسة دور فاعل وقائد فى رسم السياسة الروسية على الصعيدين الداخلى والخارجى، ومتابعة تنفيذ رؤيته وإدخالها حيز التنفيذ.

ثالثها، إحترام بوتين للدستور الروسى وعدم الإقدام على تعديله وإلغاء قيد الفترتين الرئاستين بعد انتهاء فترة رئاسته الثانية عام ٢٠٠٨، مؤكداً أن دستور روسيا الاتحادية لا يجب تعديله من أجل شخص، وأن الدستور يحظر ترشحه عام ٢٠٠٨ ولكنه لا يمنع ذلك عام ٢٠١٢. ودعم بوتين انتخاب ديمتري ميدفيديف، رئيس شركة "غازبروم" والنائب الأول لرئيس الوزراء، رئيساً للجمهورية، وانتقل هو للعمل رئيساً للحكومة على مدى أربعة سنوات (٢٠٠٨ – ٢٠١٢). ولاشك أن تراجع بوتين وقدرته على العمل كرجل ثانى فى النظام أكسبه تقدير واسع بين المواطنين الروس وأكد أن هدفه خدمة البلاد وليس فقط كرسى الحكم، كما عكس قوة معنوية كبيرة وثقة فى النفس وفى قدرته على العودة مجدداً لسدة الحكم عبر انتخابات حرة ونزيهة وهو

ما تم بالفعل عام ٢٠١٢. وجدير بالذكر أن تعديل مدة الرئاسة من أربع إلى ست سنوات تم عام ٢٠٠٨ فى عهد ديمتري ميدفيديف وتزامن مع مد فترة البرلمان أيضاً من أربع إلى خمس سنوات.

رابعها، قدرة بوتين على إستعادة الاستقرار للحياة السياسية والخروج بها من حالة الفوضى والصراع الذى كاد يمزق البلاد، وكان حاسماً فى الحد من تدخل رجال الأعمال فى السياسة إنطلاقاً من أن الجمع بين السلطة والمال هو أحد مواطن الداء الرئيسية وسبب أساسى فى تدهور البلاد وتكريسها لخدمة مصالح القلة الأوليجاركية من رجال الأعمال على حساب المصلحة العامة لجموع المواطنين والمصلحة الوطنية الروسية. والتأسيس لما يمكن أن يطلق عليه "الديمقراطية الناضجة" التى تحتكم إلى الأليات الديمقراطية فى إدارة العملية السياسية. فمن الملاحظ الحرص الشديد على عقد الانتخابات البرلمانية والرئاسية فى موعدها منذ توليه السلطة، ومثلت الانتخابات الرئاسية الأخيرة نقلة نوعية فى مستوى النزاهة والشفافية فى إدارة العملية النتخابية حيث أسند بوتين رئاسة لجنة الانتخابات المركزية الروسية، إلى السيدة إللا بامفيلوفا، المعروفة بجهدها فى مجال حقوق الانسان، ومعارضتها للكرملين، وخاضت الانتخابات الرئاسية الروسية ضد بوتين عام ٢٠٠٠ وحصلت على ١% من الأصوات، وذلك ضماناً لنزاهة اللجنة، إلى جانب ميكنة العملية الانتخابية وجعلها إلكترونية ومراقبة بالكاميرات، والسماح بالرقابة الدولية (أكثر من ١٥٠٠ مراقب من ٦٥ دولة) والمحلية (١٤٠ ألف مراقب من المنظمات الروسية).

ورغم انتماءه لحزب "روسيا الموحدة"، إلا إن بوتين نجح أن يجعل من نفسه رمزاً وطنياً، وأن يفتح حواراً مع القوى السياسية المختلفة، ويوجد لغة مشتركة مع الشيوعيين والقوميين دون التخلى عن العلاقات الوثيقة مع الاتجاه الليبرالى. مما أدى إلى قدر كبير من التفاهم والتوافق بين الرئيس والبرلمان (الدوما) ودرجة عالية من الاستقرار السياسى لم تشهدها روسيا منذ سبعينيات القرن الماضى. كما أعاد للحكومة المركزية هيبتها وقبضتها على الأقاليم الروسية، مما دعم الاستقرار السياسى فى البلاد وأدى إلى تراجع النزعات الانفصالية حتى داخل الشيشان ذاتها والتى ظلت بؤرة أساسية لعدم الاستقرار حتى تم تصفية العناصر الارهابية الشيشانية وإحكام سلطة الرئيس رمضان قاديروف على مقاليد الأمور فى بها.

خامسها، الإنجاز الذى حققه بوتين فى الملفات الداخلية الحيوية بالنسبة للمواطن الروسى. إن عودة سريعة بالذاكرة إلى وضع روسيا الداخلى والدولى عند توليه السلطة مطلع عام ٢٠٠٠ توضح حجم الإنجاز الذى حققه الرئيس بوتين. فقد كانت روسيا تغرق فى المشكلات ويعتصرها عدم الاستقرار الاقتصادي والاجتماعى والسياسى، إلى جانب الفوضى وغياب الأمن نتيجة انتشار الجريمة والارهاب الذى تجاوز حدود القوقاز وبات يهدد المواطنين الروس فى منازلهم

وحياتهم اليومية. ولم يكن بوتين يملك عصا سحرية لتغيير كل ذلك بين ليلة وضحاها، ولكنه إمتلك الرؤية والإيمان والإنجاز. فقد خرج بوتين من رحم نظام يلتسين المتداعى، ولكنه قدم نموذج للقيادة الوطنية القادرة على التغيير، ومكنته خبرته وخلفيته السياسية والأمنية من بلورة رؤية لمستقبل روسيا وما يجب أن تكون عليه، وكيفية تحقيق ذلك من خلال سياسات اتسمت بالبرجماتية والواقعية الشديدة.

ولم يتحدث بوتين كثيراً عن رؤيته هذه، فهو قليل الكلام والتصريحات بطبعه، إلا إنه من خلال تتبع سياساته الداخلية والخارجية منذ توليه السلطة يمكن القول أن رؤيته لاستعادة المكانة الروسية قامت على منهج متدرج فى إطار ثلاث مراحل أساسية هى: النهوض، والتمكين، ثم الانطلاق. فقد كرس بوتين فترة رئاسته الأولى لنهوض روسيا من كبوتها الاقتصادية وتعزيز قدراتها العسكرية، وتحقيق التوافق السياسى وانهاء حالة الاستقطاب بين القوى الشيوعية والقومية من ناحية والقوى الليبرالية من ناحية أخرى، مع توظيف السياسية الخارجية لخدمة الأولويات الداخلية. وسعى لتثبيت دعائم هذا كله خلال فترة رئاسته الثانية التى كانت بمثابة فترة نقاهه وتمكين لروسيا المتعافية، لتأتى الإنطلاقة فى فترة رئاسته الثالثة والتى شهدت عودة قوية لروسيا على الساحتين الدولية والإقليمية كما انعكست فى الموقف الروسى من الأزمتين السورية والأوكرانية.

وكما كان الاقتصاد هو موطن الداء، والعامل الأساسى الذى أجهز على الاتحاد السوفيتى وأدى إلى انهياره، كان الانتعاش الاقتصادى هو بداية الصحوة الروسية. فبعد أن كادت روسيا تعلن إفلاسها خلال الأزمة الاقتصادية التى واجهتها فى أغسطس ١٩٩٨، شهدت روسيا درجات متزايدة من النمو الاقتصادى، وصل إلى حد الطفرة بنسبة بلغت ٧% منذ عام ٢٠٠٣ وعلى مدى عقد تالى. وكان للمواطن الروسى نصيباً من هذه الطفرة الاقتصادية فتم تحسين مستويات المعيشة والخدمات على مدى ما يقارب من عقد ونصف. إلا إن الأزمة الاقتصادية التى واجهت روسيا نتيجة الانخفاض الحاد فى أسعار النفط على مدى العامين الماضيين ألقت بظلال واضحة على الاقتصاد الروسى الذى انكمش وتراجع نموه، وارتفعت معدلات الفقر والبطالة مقارنة بسنوات الازدهار ولكنها تظل فارقة عن حقبة التسعينات. وعلى سبيل المثال، بلغت نسبة من يعيشون تحت خط الفقر ١٥% فى ٢٠١٧ مقارنة بـ ٣٢% عام ٢٠٠٠، وانخفضت نسبة البطالة إلى ٥,٨%، وبلغ معدل التضخم ٢.٢% عام ٢٠١٨ مقارنة بـ ٨٦% عام ١٩٩٩. كما استطاعت روسيا أن تخرج من العباءة الضيقة كمصدر للطاقة والأسلحة إلى فضاء أوسع من المعاملات والشراكات التى تضمن لها وللاقتصاد الروسى وضعية أفضل، ودور محورى فى خريطة الطاقة العالمية وما يستتبع ذلك من مكانة دولية متميزة ومستقرة. وتقدمت كثيراً فى

المجال الزراعى وقامت بإحداث نقلة نوعية فى إنتاجها من الحبوب، وبلغت قيمة الصادرات الروسية من الحبوب والمنتجات الزراعية ٢٠ مليار دولار سنويا، متجاوزة صادرات الأسلحة، ولتصبح روسيا أكبر مصدر للحبوب فى العالم حيث تقوم بتصدير ما يقرب من ٤٥ مليون طن من الحبوب منها ٣٢ مليون طن من القمح متقدمة بذلك على الولايات المتحدة وكندا، أبرز مصدري القمح في العالم.

تزامن ذلك مع تعزيز قدرات الأجهزة الأمنية وإدخال النظم التنكولوجية الحديثة فى الإدارة والرقابة لفرض الانضباط وتوفير الأمن فى الشارع الروسى، لتعود موسكو وغيرها من المدن الروسية إلى سابق عهدها، آمنة ومنضبطة. هذا إلى جانب التعامل الفعال مع خطر الارهاب، وخلال العام المنصرم تمكنت أجهزة الأمن الروسية، وفق بيان مدير هيئة الأمن الفيدرالية الروسية ألكسندر بورتنيكوف فى ١٢ ديسمبر الماضى، من إحباط ٦١ مخططا إرهابيا، بما في ذلك ١٨ هجوما إرهابيا، وتفكيك ٥٦ خلية إرهابية سرية واعتقال أكثر من ١٠٠٠ مسلح.

كذلك، أحدث بوتين نقلة نوعية فى القدرات العسكرية الروسية لتستعيد روسيا مكانتها كقوة عسكرية عظمى، بعد التدهور الحاد والتقلص الذى شهدته خلال التسعينات، وأبدى تقدير أدبى ومعنوى ملحوظ للعسكريين الروس من خلال الاهتمام بإحياء الروح الوطنية والاحتفال باتنصارات روسيا فى الحرب العالمية الثانية وغيرها، وتكريم المحاربين القدامى، والعائدين من العمليات فى سوريا. واستعادة روسيا ترتيبها كثاني أكبر مصدر للأسلحة في العالم بقيمة نحو ١٥.٣ مليار دولار العام الماضى. وفى خطابه السنوى أمام الجمعية الاتحادية فى الأول من مارس، أكد بوتين نجاح روسيا فى تطوير قدراتها العسكرية وإمتلاك منظومات تمثل نقلة نوعية فى الدفاع الاستراتيجى الروسى، وتجعل روسيا قادرة على اختراق كل أنظمة الدفاع الجوي والصاروخي، سواء الموجودة أو التى يمكن تطويرها مستقبلاً.

يضاف إلى ذلك، قدرة بوتين على استعادة هيبة ومكانة روسيا كقوة كبرى مؤثرة على الصعيد الدولى، كما وعد عند توليه السلطة، وذلك عقب حقبة التسعينات وما شهدته من انصياع للإرادة الأمريكية. ففور توليه السلطة أعلن أنه "لا للقروض .. لا للمساعدات" من الخارج، إنطلاقاً من إنه لا يمكن لروسيا أن تمارس دورها كقوة كبرى وهى تمد يدها لغيرها من القوى. وكان خطابه الشهير فى مؤتمر ميونيخ للأمن عام ٢٠٠٧ إيذاناً بانتهاء القطبية الواحدة ووضع حد للهيمنة الأمريكية المطلقة على الشأن الدولى والإقليمى حيث وجه خلاله انتقادات حادة للسياسة الأمريكية "لاستخدامها المفرط للقوة .. وتجاوزها حدودها الوطنية فى كل اتجاه، واعتبر أن قيادة الولايات المتحدة " لعالم احادى القطب" غير مقبول، وأدى الى المزيد من الحروب

والصراعات فى العالم، وأكد حق "بلاده فى السؤال عما يهدف اليه الناتو حين يوسع قواعده وبنيته التحتية باتجاه موسكو، فى حين أن التهديد الحقيقى العالمى يشكله الارهاب وأسلحة الدمار الشامل".

أعقب ذلك موقفة الصارم خلال أزمة أوسيتيا الجنوبية عام ٢٠٠٨، والذى جاء تحت مظلة حماية الروس فى الفضاء السوفيتى السابق، الأمر الذى عزز من رصيده الوطنى. ومنذ ذلك الحين تتصاعد الحركة المستقلة لروسيا على الصعيد الدولى، وجاءت النقلة النوعية فى شعبيته مع إدارته للأزمة الأوكرانية، ورغم الموقف الغربى والانتقادات والعقوبات الأوروبية والأمريكية، فإن قطاع واسع من الروس، خاصة القوميين والشيوعيين منهم، يروا إن ضم شبه جزيرة القرم لروسيا إنجازاً يضاف إلى إنجازات الرئيس بوتين. وبدا التحدى الروسى لواشنطن أيضاً خلال الأزمة السورية منذ عام ٢٠١١ التى جاء الموقف الروسى منها مغايراً للتوقعات وأقرب للمواقف السوفيتية زمن الحرب الباردة، عندما كانت موسكو تقف بحسم فى مواجهة واشنطن لحماية مصالحها وحلفائها.

إن حصاد سنوات طويلة وهب فيها الرئيس بوتين نفسه لخدمة الأمة الروسية جعلت منه نموذجاً لما يمكن أن يطلق عليه "كارزما الإنجاز" التى تختلف عن أنماط القيادة الكارزمية التقليدية والتاريخية التى عرفنها والتى كانت تعتمد على تحريك الجماهير من خلال الخطب ومغازلة المشاعر القومية، ويعى بوتين ذلك ويرفع شعار "من أجل روسيا قوية" لفترة رئاسته القادمة حتى ٢٠٢٤. لقد اقترنت روسيا الحديثة باسم فلاديمير بوتين، وسيظل اسمه محفوراً فى وجدان الروس كزعيم وقائد وهب ذاته وحياته لخدمة شعبه ووطنه فاستحق أن يخلده التاريخ.